سلسلة رسائل الفضيلة ١٥

المقالة المفيدة
شرح حديث جامع في العقيدة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

سلسلة رسائل الفضيلة

(١٥)

المقالة المفيدة
شرح حديث جامع في العقيدة

إعداد
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

دار الفضيلة
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستَعينه ونستَغفره ونتوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا وسيِّئات أعمالنا، مَن يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومَن يضلِلِ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا الله وحدَه لا شريك له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أمَّا بعد؛ فالحديثُ في هذه الرِّسالة سيكون عن متنٍ في العقيدة عظيمِ الشَّأن، كبيرِ النَّفع، جليلِ الفائدة، جمعَ أصولَ الاعتقاد وأمَّهات الدِّين، باختصارٍ جميلٍ، ووفاءٍ تامٍّ، وهو متنٌ جديرٌ بكلِّ مسلم أن يحفظَه عن ظهر قَلب، وأن يكرِّره كلَّ ليلة؛ تأسِّيًا بنبيِّنا الكريم، صلواتُ الله وسلامُه وبركاته عليه.

ثبت في «الصَّحيحَيْن»[1] من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا قامَ منَ اللَّيل يتهجَّدُ قال:

«اللَّهمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المقَدِّمُ وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ».

وَزَادَ في رواية: «وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بالله».

---

(١) البخاري (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩)، ومسلم (٧٦٩)؛ وهو أوَّل حديث في كتاب التَّهجُّد من «صحيح البُخاري».

فهذا متنٌ عظيمٌ جامعٌ مشتَملٌ على **اثنتين وعشرين جملةً**، كان نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يكرِّره كلَّ ليلة يستفتح به صلاتَه من اللَّيل.

وما مِن ريب أنَّ هذه العنايةَ المستمرَّة بهذه الكلمات العظيمات استفتاحًا لصلاة اللَّيل بها تدلُّ على عِظم شأنها وجلالة قَدْرها، لاسيما إذا كانت في جوف اللَّيل[1] وهَدأة الخلق وهَجْعة النَّاس وسُكون الكَون، وهو وقت قُرب ورَحمة، تُفتَح فيه أبوابُ السَّماء بالرَّحماتِ، وينزلُ فيه الرَّبُّ تَبارك وتعَالى إلى سَماء الدُّنيا بالعَطايا والهباتِ، إذ يقفُ العبدُ الصَّالح النَّاصح بينَ يدي ربِّه ـ تبارك وتعالى ـ في هذا الوقتِ

---

(١) كما في رواية للحديث في «صحيح مسلم»: «كَانَ يَقُولُ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ»، والصَّلاة في هذا الوقت هي خيرُ الصَّلوات وأحبُّها إلى الله سبحانه وتعالى ـ بعد الصَّلاة المكتوبة، فقد أخرج مسلم في «صحيحه»(١١٦٣) عن أبي هريرةَ قال: سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الصَّلاةِ أفضلُ بعد المكتوبةِ؟ قال: «**الصَّلَاةُ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ**».

الشَّريفِ الفاضِل، ليُصلِّي لربِّه ما تيسَّر مِن صلاةٍ مستفتِحًا لها بهذه الكَلِمات العَظيمات الَّتي تفيضُ إيمانًا وتصديقًا وتوحيدًا وإخلاصًا واستسلامًا لله ـ تبارك وتعالى ـ وتوسُّلًا بأسمائِه وصفاتِه ـ عزَّ وجلَّ ـ، وبالخضوع له والتَّذلُّل لعزَّتِه وجلاله، والانكسارِ بينَ يدَيْه، ممَّا يكونُ له الأثر البالغُ في تقويةِ الإيمان، وترسيخ الاعتقَاد، وتثبيتِ التَّوحيد.

وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الأذكار الشَّرعيَّة والدَّعوات المأثورة عن نبيِّنا وقدوتِنا ﷺ ليسَت أقوالًا لا معنى لها، أو كلماتٍ لا مضمونَ لها، بل هي كلماتٌ جليلاتٌ وألفاظٌ عظيماتٌ، مشتملاتٌ على أجلِّ المعاني، وأعظم المقاصد، وأنبل الأهداف، كيف لا؟! وهي كلماتُ الصَّادق المصدُوق الَّذي لا ينطقُ عن الهوى، إنْ هو إلَّا وحيٌ يُوحى، قالها ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ في مُناجاته لربِّه جلَّ في عُلاه.

وهذه المداومَة على هذه الكلماتِ العَظيماتِ من نبيِّنا ﷺ إذا قام منَ اللَّيل يتهجَّد، تدلُّنا دلالةً واضحةً على أهميَّة

استذكار المسلم لأصُول الإيمان وعقائد الدِّين واستحضَاره لها؛ عملًا على تجديدِ الإيمان وتقويتِه وترسيخِه، بحيث لا يزداد مع كَرِّ اللَيالي ومَرِّ الأَيَّامِ إلَّا قوَّةً وثباتًا، وتأتي هذه الأذكار الشَّرعيَّة المبارَكَة محقِّقَةً ذلك أتمَّ تحقيق؛ بحيثُ تكونُ عقيدةُ العَبد المؤمن راسخةً متجدِّدةً بتجدُّد الأوقات.

وفي الحديث يقول النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[1]، وفي رواية: «**فَاتْلُوا القُرْآنَ يُجَدِّدُ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[2]، ورُوي في «المسنَد» وغيره[3] من

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٥)، وقال: رواتُه مصريُّون ثقات، ووافقَه الذَّهبي، وقال العِراقي في «أماليه»: حديثٌ حسن، كما في «فيض القَدير» للمُناوي (٢/ ٤١٠).

(٢) أخرجه الطَّبراني في «الكبير» (١٣/ ٦٣).

(٣) «المسند» (٨٧١٠)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦٥)، وقال: «حديث صحيح الإسناد»، وتعقَّبه الذَّهبي بقوله: «صدقَة ضعَّفُوه».

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ**»، قِيلَ: يا رسولَ الله؛ وكيفَ نجدِّدُ إيمانَنا؟ قال: «**أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا الله**». أي أنَّ المداومة عليها تجدد الإيمان في القلب وتملأه نورا وتزيده يقينًا وإخلاصًا.

وهذا مقامٌ يحتاج من العَبد إلى عملٍ دؤوب ومجاهدةٍ للنَّفس مستَمرَّة واستذكارٍ دائم، فليسَت العقيدةُ متنًا تقرؤُه في مرحلة من مراحل الدِّراسة ثمَّ تنتهي، أو تقرؤه على شيخ في مسجد منَ المساجد ثمَّ تتوقَّف، وإنَّما هي أمرٌ ثابتٌ معك في حياتك، مستمرٌّ معك في كلِّ أوقاتك.

وهذه الكلماتُ العظيماتُ في هذا الاستفتاح المبارَك الَّذي كان نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يستَفتح به صلاتَه منَ اللَّيل؛ تحقِّقُ هذه المعاني تحقيقًا عظيمًا، وتقوِّي هذه العقيدة وتثبِّتُها في القَلب تثبيتًا عجيبًا؛ فجديرٌ بالمسلم أن يحفظَ هذه الكلمات عن ظَهر قَلب، وأن يحرصَ على أن يكونَ له حظٌّ من صلاة اللَّيل يستفتِحُها بهذه الكلمات

العظيماتِ المباركات المأثورةِ عن النَّبيِّ الكريم ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ، ولا يدَعُ لياليَه هكذا تمضي وقَد حرَمَ نفسَه من هذا الخير الجزيل والفَضل العَظيم والعَطاء المبارك.

قال الآجُرِّي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّه بابٌ شريفٌ حسنٌ لمن وفَّقه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، يسيرٌ على مَن يسَّره الله له... ينبغي لمن كان له حظٌّ من قيام اللَّيل أن يحفظَ هذا، وإنَّما أحثُّه على حفظه ليستَعمله، وكذا ينبغي لكلِّ مسلم أن يحفَظَه ممَّن لا حظَّ له في قيام اللَّيل فيدعو به رجاءَ أن يوفِّقَه مولاه الكريم لقيام اللَّيل إن شاءَ الله تعالى»(١).

وممَّا ينبِّه عليه العُلماء في هذا المقام: أهميَّة استحضَار معاني الأذكار الشَّرعيَّة ودلالاتها؛ حتَّى تكونَ قويَّةَ الأثر محقِّقَة النَّفع والفائدة، أمَّا إذا كانَ يقولها المرءُ ألفاظًا لا يَعي معنَاها ولا يدري مدلولَها؛ فإنَّها كما قال العلماءُ ـ رحمهم الله

---

(١) «فضل قيام اللَّيل والتَّهجُّد» (ص١٣٥ ـ ١٣٦).

تعالى ـ تكون ضعيفةَ الأثَر إن لم تكن عديمَةَ النَّفع، لاسيما إذا كانت فعالُ المرءِ وأقوالُه مناقضةً لمدلولِ هذه الكلمات، بينما إذا وُفِّقَ العبدُ للعناية بالذِّكر والدَّيمُومة عليه، مع فَهْم مدلولِه، وتحقيقِ غايته ومقصودِه أثمَرَ أنواعَ الثِّمار اليانعَة، وآتى أطايبَ الجنى اللَّذيذِ، فهو كما يقول العلَّامةُ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «شجرةٌ تُثْمِرُ المعارفَ والأحوالَ الَّتي شمَّر إليها السَّالكون، فلا سبيلَ إلى نَيْل ثمارِها إلَّا من شجرةِ الذِّكر، وكلَّما عظمتْ تلك الشَّجرةُ ورسخَ أصلُها كانَ أعظمَ لثمرتها، فالذِّكرُ يُثمِرُ المقامات كلَّها منَ اليقظة إلى التَّوحيد، وهو أصلُ كلِّ مقام وقاعدتُه الَّتي ينبني ذلكَ المقامُ عليها، كما يُبنَى الحائطُ على أُسِّه، وكما يقومُ السَّقفُ على حائطِه»[1].

والله المستَعان ولا حول ولا قوَّة إلَّا به.

وهذا أوانُ الشُّروع في بيان مضامين جُمَل هذا

---

(١) «الوابلُ الصَّيِّب» (ص١٥٧).

الاستفتاح العظيم المأثور عن نبيِّنا الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بشيءٍ من الاختِصار والإيجاز، وإلَّا فإنَّ كلَّ جملةٍ من جُملِه تحتاج إلى بسطٍ خاصٍّ، سائلاً الله ـ جلَّ في علاه ـ أن يبارك لنا أجمعين في هذَا اليَسير، وأن يهيِّئ لنا فيه منَ الخير والبَركة والفائدةِ والنَّفع فوقَ ما نؤمِّل، وأن يجعَلَه بابًا مباركًا علينا أجمعين لتَجديد الإيمانِ وتقويتِه وتثبيت الاعتقادِ وترسيخِه بإذنِه ـ تبارك وتعالى ـ ومدِّه وعونِه، وهو وحده الموفِّق لا شريكَ له.

□ **الأولى:** قوله: «**اللَّهُمَّ لَكَ الحمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»؛ بدأ ﷺ هذه المناجاة لربِّ الأرض والسَّموات بحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ، والحمدُ: هو الثَّناء على الله ـ تبارك وتعالى ـ بما هو أهلُه مع حبِّه جلَّ في عُلاه.

فالحمد ثناءٌ وحبٌّ، وإذا عريَ الثَّناءُ عن الحبِّ كان مدحًا وليس حمدًا.

وحمدُ الله ـ تبارك وتعالى ـ: الثَّناءُ عليه بذكر صفاته العظيمَة ونعمِه العميمَة مع حبِّه وتعظيمِه وإجلالِه، وهو مختصٌّ به ـ سُبحانه ـ لا يكونُ إلَّا له، ولهذا قال: «**لَكَ الحَمْدُ**»، وهو من أساليب الحصر، ففي تقديم الجارِّ والمجرورِ إفادة التَّخصيص، فالحمد كلُّه لله ربِّ العالمين.

والحمدُ يكونُ على الأسماء والصِّفات، ويكون على النِّعم والعطايا والهبات؛ فمِن أمثلة حمده ـ سُبحانه وتعالى ـ على أسمائِه وصفاتِه حمدُهُ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ لله في هذا الحديث على قيُّوميَّته، وعلى أَنَّه ـ سبحانه وتعالى ـ نورُ

السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ، وأنَّ له ملكَ السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ.

ومن أمثلة حمد الله ـ تبارك وتعالى ـ على النِّعم والعطايا: قول نبيِّنا ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(١).

فالله ـ سُبحانه وتعالى ـ يُحمد على أسمائه وصفاتِه، ويُحمد ـ جلَّ وعلا ـ على نعمِه وهباتِه؛ يُحمَد على كلِّ اسم من أسمائه، وكلِّ صفة من صفاته، وكلِّ فعل مِن أفعاله، وكلِّ حكم مِن أحكامه، ويُحمَد ـ تبارك وتعالى ـ على كلِّ نعمة مِن نعمِه وعطيَّة مِن عطاياه، ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ**﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿**وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ**﴾ [النحل: ١٨]، وهُو ـ عزَّ وجلَّ ـ وحدَه أهل الحمدِ والثَّناءِ جلَّ في عُلاه.

وفي هذَا الاستِفتاح تكرُّرُ الحمدِ بتكرُّر ما يُحمَد عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الرَّبُّ ـ سبحانه وتعالى ـ من الأسماءِ والصِّفات ممَّا يدلُّ على أنَّ علْمَ العَبد بها علمًا صحيحًا من أعظم مُوجبات قيامِه بحمد الله على أحسَن وجه وأتمِّ حالٍ.

وفي تكرير الحمدِ ـ أيضًا ـ اهتمامٌ بشأنه، وليُناط به كلَّ مرَّةٍ معنًى آخَر ممَّا يدلُّ على تنوُّع موجبات الحمدِ وتعدُّدِها.

وقوله: «**أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»؛ أي: القائم بشؤون السَّموات والأرض ومَن فيهنَّ تصريفًا وتدبيرًا وتسخيرًا، فالأمر بيد الرَّبِّ ـ تبارك وتعالى ـ، وطوع تدبير القيُّوم؛ فالسَّموات والأرض ومَن فيهنَّ كلُّ هذه الكائنات قائمة بأمر الله ـ سُبحانه وتَعالى ـ، ومن أسمائه تبارك وتعالى: «القيُّوم»[1]، وقَد ذُكر في القُرآن في ثلاثة مواضع: في آية الكرسي ﴿ **ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ** ﴾، وفي

---

(١) وقد جاء هذا الاسم في روية للحديث عند النسائي (٧٦٥٦) ولفظه: «وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ قَيُّومُ السماوات وَالأَرْضِ».

أوائل آل عمران، وفي سورة طه ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]، وفي هذا الاسم إثبات القَيُّوميَّة صفةً لله، وهي كونه ـ سُبحانه ـ قائمًا بنفسِه مقيمًا لخلقه، فهو اسمٌ دالٌّ على أمرين:

الأوَّل: كمالُ غنَى الرَّبِّ سبحانه، فهو القائمُ بنفسِه، الغنيُّ عن خلقِه، كما قال سُبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [سورة فاطر]، وفي الحديث القُدسي: «**إنَّكم لَنْ تَبلُغُوا ضَرِّي فَتضُرُّوني، ولَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**» رواه مسلم[1].

وغِناه سُبحانه عن خلقِه غنىً ذاتيٌّ؛ لا يحتاجُ إليهم في شيء، غنيٌّ عنهم مِن كلِّ وجه.

الثَّاني: كمال قُدرتِه وتدبيرِه لهذه المخلوقاتِ، فهو المُقيم لها بقُدرته سُبحانه، وجميع المخلوقات فقيرةٌ إليه، لا غنى لها

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٥٧٧) وهو طرف من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه.

عنه طرفةَ عين، فالعرشُ والكرسيُّ، والسَّمواتُ والأرض، والجبال والأشجار، والنَّاس والحيوان؛ كلُّها فقيرةٌ إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو سُبحانه المتصرِّف في جميع المخلوقاتِ، المدبِّر لكلِّ الكائنات، قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [سورة فاطر]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، والآيات في هذا المعنَى كثيرة.

□ **الثَّانية**: قوله: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»؛ فيه إثبات النُّور اسمًا لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وصفةً له ـ تبارك وتعالى ـ، وممَّا يدلُّ عليه في تضمُّنه إثبات أنَّ اللهَ ـ سُبحانه وتعالى ـ مُنيرُ السَّموات والأرض بقُدرتِه.

قال الشَّيخ عبد الرَّحمن بن سَعدي في بيان معنَى هذا

الاسم: «النُّور من أوصافِه تعالى على نوعَيْن:

نورٌ حسِّيٌّ؛ وهو ما اتَّصفَ به من النُّور العَظيم الَّذي لو كشفَ الحجابَ عن وجهه لأحرقَت سُبُحاتُ وجهه ونورُ جلالِه ما انتهى إليه بصرُه من خلقِه، وهذا النُّور لا يمكنُ التَّعبير عنه إلَّا بمثل هذه العبارة النَّبويَّة المؤدِّية للمعنى العظيم، وأنَّه لا تطيقُ المخلوقات كلُّها الثُّبوت لنور وجهِه لو تبدَّى لها، ولولا أنَّ أهل دار القَرار يُعطيهم الرَّبُّ حياةً كاملةً، ويُعينُهم على ذلك لما تمكَّنوا من رؤية الرَّبِّ العَظيم، وجميع الأنوار في السَّموات العُلويَّة كلِّها من نوره، بل نُور جنَّات النَّعيم الَّتي عرضُها السَّموات والأرض وسَعَتُها لا يعلمها إلَّا الله من نوره، فنُور العَرش والكُرسي والجنَّات من نوره، فضلًا عن نور الشَّمس والقَمر والكَواكب.

والنَّوع الثَّاني: نورُه المعنَوي؛ وهو النُّور الَّذي نوَّر قلوبَ أنبيائه وأصفيائه وأوليائه وملائكته، من أنوار معرفتِه

وأنوار محبَّته، فإنَّ لمعرفتِه في قلوب أوليائِه المؤمنين أنوارًا بحسب ما عرفُوه من نُعوت جلاله وما اعتقَدوه من صفات جمالِه، فكلُّ وصفٍ من أوصافِه له تأثيرٌ في قلوبهم، فإنَّ معرفةَ المولى أعظم المعارف كلِّها، والعلمُ به أجلُّ العلوم، والعلم النَّافع كلُّه أنوارٌ في القُلوب، فكيفَ بهذا العلم الَّذي هو أفضل العلوم وأجلُّها وأصلُها وأساسُها»(١) اهـ.

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ نورٌ، وشرْعُه نورٌ، ورسولُه نورٌ يحمل النُّور والضِّياء، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [سُورَةُ الأَحْزَابِ]، والوحي نورٌ كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [سُورَةُ الشُّورَى].

---

(١) «فتح الرَّحيم الملك العلَّام» (ص٦٢ ـ ٦٣).

□ **الثَّالثة**: قوله: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»[1]؛ فيه إثبات أنَّ السَّموات والأرض ومَن فيهن ملْكٌ لله ـ سبحانه وتعالى ـ، ليس له ـ عزَّ وجلَّ ـ شريكٌ في الملك ولا في مقدار ذرَّة، بل الملك كلُّه لله، يدبِّرُ أمر الممالك كيف يشَاء؛ يخلقُ ويرزُق، ويميتُ ويحيي، ويقضِي وينفذ، ويعزُّ ويذِلُّ، ويخفضُ ويرفَع، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّبَ لقضائه.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ حقيقةَ المُلك إنَّما تتمُّ بالعطاء والمنع والإكرام والإهانة، والإثابة والعقوبة، والغَضب والرِّضا، والتَّولية والعَزل، وإعزاز مَن يليق به العزُّ، وإذلال مَن يليق به الذُّلُّ، قال تعالى: ﴿**قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن**

---

(١) وفي رواية:«**وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»، وفي رواية: «**ولَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**».

تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧﴾ [سُورَةُ آلِ عِمۡرَانَ]، وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [سُورَةُ الرَّحۡمَٰنِ]، يغفر ذنبًا، ويفرِّج كربًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفكُّ عانيًا، ويُغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقيلُ عثرةً، ويسترُ عورةً، ويعزُّ ذليلًا، ويذلُّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهَبُ بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيَّام بين النَّاس، ويرفع أقوامًا، ويضَع آخَرين، يسوقُ المقادير الَّتي قدَّرها قبل خلقِ السَّموات والأرض بخمسين ألفَ عام إلى مواقيتها، فلا يتقدَّم شيءٌ منها ولا يتأخَّر، بل كلٌّ منها قَد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرَى به قلمُه، ونفَذَ فيه حكمُه، وسبقَ به علمُه، فهو المتصرِّف في الممالك كلِّها وحدَه، تصرُّف ملكٍ قادرٍ قاهرٍ عادلٍ رحيمٍ، تامِّ الملك، لا ينازعُه في

مُلكِه منازع، ولا يعارضُه فيه معارضٌ، فتصرُّفُه في المملكة دائرٌ بين العَدل والإحسان، والحكمة والمصلحَة والرَّحمة، فلا يخرج تصرُّفه عن ذلك»[1].

وإيمانُ العبد واعتقادُهُ بأنَّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ الملكُ لا ندَّ له يقتضي إفرادَه وحدَه بالعبادة وإخلاص الدِّين له، إذ كيفَ يعتقد أنَّه وحدَه الملك الَّذي بيده الأمرُ ثمَّ يلجأ إلى غيره؟! أينَ إيمانُه بأنَّ الله هو الملِك الَّذي بيده مُلك السَّموات والأرض؟ وهل هذا الغَير الَّذي يُدعى يَمْلِك شيئًا لنفسه أو لغَيره؟!

هذا؛ وقد تكرَّر في القُرآن الكريم بيان أنَّ تفرُّد الله بالمُلك لا شريكَ له دليلٌ ظاهرٌ على وجوب إفرادِه وحده بالعبادة، قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦﴾ [سُورَةُ المؤمنون].

(١) «طريق الهجرتين» (ص١١٥ ـ ١١٦).

وأنَّ عبادةَ مَن سواه ممَّن لا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا حياةً ولا موتًا ولا نشورًا أضلُّ الضَّلال وأبطل الباطل، وقَد ورَدَ في القُرآن آياتٌ عديدةٌ تقرِّرُ هذه الحقيقةَ وتجلِّي هذَا الأمر.

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴿٣﴾﴾ [سُورَةُ الفُرۡقَانِ].

وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ فَاطِرٍ].

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ

كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [سُورَةُ الإِسۡرَاءِ].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سُورَةُ سَبَإٍ]، أي: لا يملكُ مثقالَ ذرَّة استقلالًا، ولا يملكُه على وجه المشاركَة، بل لا يملكُ الإنسانُ في هذه الحياة شيئًا إلَّا بتمليكِ الله له، كما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، ومَن لا يملكُ في هذا الكون ولا مثقال ذرَّة لا يجوز أن يُصرَفَ له شيءٌ من العبادة، إذ العبادةُ حقٌّ للمَلك العَظيم والخالق الجليل والرَّبِّ المدبِّر لهذا الكون لا شريكَ له، عزَّ شأنُه وعظُم سلطانُه وتعالى جدُّه ولا إلهَ غيرُه.

رأيتُ مرَّةً ـ في إحدى الدُّوَل ـ رجلًا جاوزَ السِّتِّين سنةً وفي عُنقه تميمةٌ ومِن إعجابه بها جعَلها مِن فوق ثيابِه، والكثيرُ يخفيها، فقلتُ له: لماذا جعلتَ هذه في عنُقِك؟ قال:

«من أجل أنَّها تُدِرُّ الرِّزقَ عليَّ»، وربَّما اعتقَد بعضُهم مثل ذلك في السُّبحة، فبالله! هل فَهِمَ مَنْ يقول مثلَ هذا الكلام مدلول اسمَ الله «الملك»؟ حديدةً يعلِّقها في عنقِه يعتقدُ فيها أنَّها تدِرُّ عليه رزقًا!! أين العُقول؟! أين الإيمان بأنَّ الله هو «الملك» «الرَّزَّاق» «المعطي» «الجواد»؟ أين إيمانه بقَول الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سُورَةُ الذَّارِيَاتِ]؟ أي عند الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

لكنَّ أئمَّة الضَّلال ودُعاة الباطل يخرِّبون الأديان ويُفسدون العُقول، وقد قال نبيُّنا ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ**»(١)؛ لأنَّهم يورِّطون النَّاس توريطًا عظيمًا بإدخالهم في العَقائد الباطلة والتَّعلُّقات الفاسدَة الَّتي ما أنزلَ اللهُ بها من سُلطان، ثمَّ إنَّ هذا الرَّجل ـ والفضل لله سبحانه وتعالى وحدَه ـ بعد أن

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٣٩٣)، والتِّرمذي (٢٢٢٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه وقال: حسن صحيح.

أوقَفْتُه على بعض الأدلَّة في هذا الباب تقبَّل، وقال: سأكونُ داعيةً لقومي في تحذيرهم مِن هذه الأمور الفاسِدة.

□ **الرَّابعة:** قوله: «**وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ**»؛ و«**الحقُّ**»: اسمٌ من أسماء الله ـ تبارك وتعالى ـ الحسنى، ومعناه: أي الَّذي لا شكَّ فيه ولا ريبَ، لا في ذاتِه، ولا في أسمائه وصفاتِه، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيَّته، فهو المعبود بحقٍّ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه، فهو ـ تبارك وتعالى ـ حقٌّ، وأسماؤه وصفاته حقٌّ، وأفعاله وأقواله حقٌّ، ودينه وشرعه حقٌّ، وأخباره كلُّها حقٌّ، ووعده حقٌّ، ولقاؤه حقٌّ، وله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده دعوةُ الحقِّ؛ فلا يُدعى إلَّا الله، ولا يُصرفُ شيءٌ من العبادة إلَّا للحقِّ المُبين ـ سبحانه وتعالى ـ، قال الله تعالى: ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ٦٢**﴾ [سُورَةُ الحَجِّ]، وقال ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا**

يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [سُورَةُ الرَّعْدِ].

أرأيتُم لو أنَّ رجلًا اشتدَّ به العطشُ ووقَف على مسافةٍ بعيدةٍ من نهرٍ عذبٍ ومدَّ يدَيْه ناحيتَه هل يصلُ الماءُ إلى فيه؟ لا والله! فهذا مثلٌ ضَربَه الله في القُرآنِ لكلِّ مَن يلتَجئ إلى غيرِ الله؛ أيًّا كانَ هذا الَّذي يلتَجئ إليه، لبيان بلادةِ فهمِه وفسادِ عقلِه وانحرافِه عن سَواء السَّبيل.

□ **الخامسة**: قوله: «**وَوَعْدُكَ الحَقُّ**»؛ والله ـ سبحانه وتعالى ـ صادقُ الوعد، لا يخلف الميعاد، وهذا فيه أيضًا إيمانٌ بأنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يُوفِي عبادَه وأولياءَه وأصفياءَه كلَّ ما وعدَهُم به من عطايا وهباتٍ وخيراتٍ وكراماتٍ في الدُّنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وقال

تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ⁦(٦)⁩﴾ [سورة الروم]؛ ومن دعاء أُولي الألباب: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ⁦(٩)⁩﴾ [سورة آل عمران]، ومن دعائهم أيضًا: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ⁦(١٩٤)⁩﴾ [سورة آل عمران].

□ **السَّادسة:** قوله «وَقَوْلُكَ الحَقُّ» أي: لا باطلَ فيه، كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ⁦(١٤٧)⁩﴾ [سورة البقرة]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [البقرة: ١٤٩]، وقال تعالى: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ⁦(٤٢)⁩﴾ [سورة فصلت]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ⁦(٨٢)⁩﴾ [سورة النساء]، فالله ـ سبحانه وتعالى ـ قولُه كلُّه حقٌّ لا باطلَ فيه، تنزَّه وتقدَّسَ

قولُه عن الباطل، وهذَا ممَّا يعتَبِر به المسلمُ فلا يعدِلُ عن كلام الله وكلام رسولِه المعصوم ﷺ.

وفي قوله: «**أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ**»؛ دخَلت الألف واللَّام، والألف واللَّام إذا دخَلت على اسم موصوفٍ اقتَضت أنَّه أحقُّ بتلك الصِّفة من غيره، فلم يُدْخل الألف واللَّام على الأسماء المحدَثَة فقال: «**وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ...**»، وأدخَلها على اسم الرَّبِّ تعالى ووعدِه وكلامِه.

□ **السَّابعة:** قوله: «**وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ**»؛ وهذا أمرٌ عظيمٌ جدًّا في باب الاعتقاد ينبغي أن يكونَ حاضرًا في ذهن العَبد، قال تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ**﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وقال تعالى: ﴿**تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ**﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ فيكون على عقيدةٍ متينةٍ ثابتة أنَّه سيقفُ بينَ يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ،

والله تعالى يقول في آخر آية مِن سُورة الكهف: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾، والعَمل الصَّالح هو الموافق لشرع الله، والَّذي لا شركَ فيه هو الَّذي يُراد به وجهَ الله وحدَه لا شريكَ له، وهذان رُكنا العَمل المتقَبَّل؛ لا بدَّ أن يكونَ خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ، وهذا يدلُّنا دلالةً بيِّنةً أنَّ إيمانَ العبد بلقاءِ الله واستحضَاره التَّامِّ لذلك يُثمر عملًا واستعدادًا وتزوُّدًا ليوم المعاد، وانظر في أثر هذه العقيدة في صلاح العَمل وحسن العاقبة إلى قولِ أهل الجنَّة في ذكر سبَب فَوزِهم ونجاتِهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [سُورَةُ الطُّورِ] أي من عذَابه وعقابه يوم أن نلقَاه، وقولِ مَن يؤتى كتابَه بيمينه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [سُورَةُ الحَاقَّةِ] قاله في ذلكَ اليوم حينَ نجَا منَ الخِزي، وظَفَر بالفَوز العظيم.

□ **الثَّامنة والتَّاسعة:** قوله: «وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ»؛ فيه الإيمان بالجنَّة والنَّار، وهما مِن وعده الصَّادق الَّذي أقسمَ على صدقِه وحقِّيَّته ووقوعِه في غير ما موضِع مِن كتابه؛ قال الله تعالى في وعد المؤمنين بالجنَّة: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ]، وقال في وعْدِ الكافرين بالنَّار: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِيَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ].

إلَّا أنَّهما خُصَّا بالذِّكر رغمَ دخُولهما في قوله: «وَوَعْدُكَ الحَقُّ»؛ اهتمامًا بهما واعتناءً بأمرهما، ويتَناول الإيمان بهما، وأنَّهما حقٌّ أمورًا عديدةً يجمعُها ما يلي:

١ـ كونهما لا ريبَ فيهما ولا شكَّ، وأنَّ النَّار دارُ أعداء الله، والجنَّة دارُ أوليائه؛ قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟

أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [سُورَةُ التَّحْرِيمِ]، والآيات في هذا المعنى كثيرةٌ، فكلَّما ذكَر ـ سُبحانه ـ الجنَّة عطفَ عليها بذكر النَّار، وكلَّما ذكر أهلَ النَّار عطفَ عليهم بذكر أهل الجنَّة؛ تبيانًا لما أعدَّ في الجنَّة منَ النَّعيم المُقيم لأوليائه، ولما أرصَد في النَّار من العَذاب الأليم لأعدائه.

٢ـ اعتقادُ وجودهما الآن؛ قال الله تعالى في الجنَّة: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ]، وقال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [سُورَةُ الحَدِيدِ]، وقال تعالى في النَّار: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، وقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ [سُورَةُ الفُرْقَانِ].

٣ـ الإيمانُ بكلِّ أوصاف الجنَّة الَّتي جاءت في الكتاب

والسُّنَّة؛ لأنَّ كلَّ ما جاء في الكتاب والسُّنَّة من أوصاف الجنَّة داخلٌ في قوله: «**وَالجَنَّةُ حَقٌّ**»؛ أي بجميع أوصافها المذكورة في الكتاب والسُّنَّة، كما يدخُل في قوله: «**وَالنَّارُ حَقٌّ**» أي بجميع أوصاف النَّار المذكورة في كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

٤ـ الإيمانُ بدوامهما وبقائهما بإبقاءِ الله لهما وأنَّهما لا تفنَيان أبدًا ولا يفنَى مَن فيهما؛ قال الله تعالى في الجنَّة: ﴿**خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠**﴾ [سُورَةُ التَّوۡبَةِ]، وقال تعالى: ﴿**لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨**﴾ [سُورَةُ الحِجۡرِ]، وقال تعالى في النَّار: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا**﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا**﴾ [سُورَةُ الأَحۡزَابِ].

وهذه العقيدةُ في الجنَّة والنَّار تُثمر في العَبد استعدادًا بالأعمال الَّتي تقرِّب إلى الجنَّة وبُعدًا عن الأعمال الَّتي تقرِّب

إلى النَّار، كما في الدُّعاء المأثُور عن نبيِّنا ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ**»(١).

فإذا آمن العبد بالجنَّة والنَّار وأنَّهما حقٌّ وجَب عليه أن يعملَ الأعمالَ والأقوالَ الَّتي تقرِّبه إلى الجنَّة، وأن يتجنَّب الأعمالَ والأقوالَ الَّتي تقرِّبه إلى النَّار.

□ **العاشرة**: قوله: «**وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ**»؛ وهذا الإيمانُ بالرُّسل الكرام، وهو أصلٌ من أصُول الإيمان؛ فإنَّ الإيمانَ يقوم على ستَّة أصولٍ منها الإيمان بالرُّسل، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿**ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ**﴾ [البقرة: ٢٨٥]، والإيمان بهم: إيمانٌ بأنَّهم صفوةُ الخلق، وأنَّ الله تعالى اصطفاهم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٥٠١٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، والحاكم (١/ ٧٠٢) من حديث عائشة ﵂؛ وقال: «صحيح الإسناد».

واجتباهم، وأنَّهم قد بعثَهُم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالحقِّ والهدى، وأنَّهم جميعهم صادقون مصدوقون، بَرَرَةٌ راشدون، أتقياء ناصحون، هداةٌ مهتدون، بعثَهُم به مُعرِّفين، وإليه داعين، ولمن أجابَهُم مبشِّرين، ولمن خالفَهم مُنذرين، فبلَّغوا أممَهم ما أمرهُم الله به البلاغَ المبين، فما تركوا خيرًا إلَّا دلُّوا أممَهم عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّروهم منه: ﴿**وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ** ﴿٥٤﴾﴾ [سُورَةُ النُّور]، فقامت بذلك الحجَّة على الخلق وانقطَعت المعذرةُ واستَبانت السَّبيل، قال تعالى: ﴿**لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا** ﴿٢٨﴾﴾ [سُورَةُ الجِنّ]، وقال تعالى: ﴿**رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ**﴾ [النِّسَاء : ١٦٥].

ويدخُل في الإيمان بالنُّبوَّات الإيمانُ بما جاءَهُم منَ الوحي والرِّسَالة، قال تعالى: ﴿**إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ**

﴿وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، والإيمانُ بمَن نزل إليهم بهذا الوحي منَ الملائكة الكرام، والله ـ سبحانه وتعالى ـ قَد اصطفى رسلًا مِن ملائكته الكِرام يُبلِّغون ما شاءَ إبلاغَه إلى رسُلِه منَ البشر، واصطفَى رسلًا منَ البشر لإبلاغ رسالاته إلى النَّاس، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [سُورَةُ الحَجِّ]؛ والإيمانُ بالملائكة عمومًا ركنٌ من أركان الإيمان وأصلٌ من أصوله العظام إيمانًا بأسمائهم وأعدادِهم وصفاتِهم ووظائفِهم في ضوء ما جاء به الوحيُ من خبَرِهم، إجمالاً فيما أُجمل، وتفصيلاً فيما فُصِّل.

□ **الحادية عشرة:** قوله: «**وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ**»؛ فيه الإيمان الخاصُّ بنبوَّة محمَّد ﷺ، خِيرة الله من خلقه وصفوته من عباده، وأكرم الخلق على ربِّه، إمام المتَّقين، وقائد الغرِّ

المحجَّلين، وسيِّد ولد آدم أجمعين، وخاتم النَّبيِّين: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أرسله الله بالحقِّ والهدى بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا؛ فبلَّغ البلاغ المبين، وما ترك خيرًا إلَّا دلَّ أمَّته عليه، ولا شرًّا إلَّا حذَّرها منه.

ومن الإيمان به: تحقيقُ شهادة أنَّ محمَّدًا رسولُ الله، ومعناها: طاعَتُهُ فيما أمر، وتصديقُه فيما أخبر، والانتهاءُ عمَّا نهى عنه وزجرَ، وأن لا يُعبد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلَّا بما شَرَع، لا بالأهواء والبدع، وتقديمُ محبَّته على محبَّة النَّاس كلِّهم من الأبناء والآباء وسائر القرابة، بل وعلى محبَّة المرء لنفسه، وتعظيمُه وتوقيره وإجلاله وغير ذلك من حقوقه الَّتي أوجبَها الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهو عبدٌ لا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكذَّب، بل يُطاع ويُتَّبَع، مَن أطاعه دخل الجنَّة، ومَن عصاه دخل النَّار.

ختمَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ برسالته الرِّسالات، وبكتابه

الكتب، فلا نبيَّ بعده، ولا كتابَ بعد كتابه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقد قال ﷺ: «**لَا نَبِيَّ بَعْدِي**»، وأخبر أَنَّه يخرج بعدَه دجَّالون كثيرون كلُّهم يزعُم أَنَّه نبيٌّ.

وأقفُ وقفةً مختصرةً أروي فيها قصَّةً حصلتْ قبل فترة قريبةٍ، أرويها لما فيها من فائدة:

جيء لي برجُل قالوا: عندَه أشياء غريبة وعجيبة، فنريد أن تسمعَ منه، قلتُ له: ماذا لدَيْك؟ قال: رأيتُ أَنَّني يدخل فيَّ نورٌ وضياء، وأنَّ الوحي يتنزَّل عليَّ، وأخبرني هذا الوحي أَنَّني نبيٌّ ومأمورٌ أن أبلِّغَ النَّاسَ وأن أبيِّن لهم الحقَّ والهدى، قلتُ له: ينزل عليك وحيٌ؟! قال: نعم، قلتُ له: صدقتَ، تعجَّب وتعجَّب الحاضرون!! وقلتُ له: لكن أُريد أن تنتَبه حتَّى لا تلتَبس عليك الأمور، أنت فعلًا صدقتَ في قولك: «ينزل عليَّ وحيٌ»، لكن العلماء ـ رحمهم الله ـ يقولون: الوحي وحيان:

أمَّا الأوَّل: فهو الوحي الَّذي منَ الله، والَّذي فيه قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ١٩٥﴾ [سُورَةُ الشُّعَرَاءِ].

قلتُ: وهذا الوحيُ انقطَع بموت النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ بإجماع أهل العلم، وذكرت قصَّةَ أبي بكر رضي الله عنه وعُمَر في زيارتهما لأمِّ أيمَن حاضنة النَّبيِّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ؛ وكان النَّبيُّ ﷺ يزورها، فأبو بكر وعُمَر زاراها كما كان النَّبيُّ ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ يزورها فلمَّا انتهيا إليها بكَتْ، «فقالَا لها: ما يُبْكِيكِ! ما عند الله خيرٌ لرسوله ﷺ، فقالتْ: ما أَبْكِي أنْ لَا أكون أعلمُ أنَّ ما عند الله خيرٌ لرسُوله ﷺ، ولكن أبكي أنَّ الوحيَ قدِ انقطعَ من السَّماء، فهيَّجتْهُمَا على البكاء، فجعلَا يبكيان معها»(١)، فهذا النَّوع منَ الوحي انقطع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٥٤).

والنَّوع الثَّاني منَ الوحي: هو الَّذي ذكَره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القُرآن بقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وذكره الله ـ سبحانه وتعالى ـ في القُرآن في قوله: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝٢٢١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٢٢٢﴾ [سورة الشعراء].

فهذا هُو الوحي الَّذي ينزلُ عليك، لكنِّي أنصحُك نصيحةً لوجه الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن تتعوَّذ بالله من الشَّيطان الرَّجيم وتتركَ هذا الضَّلالَ حتَّى ما تضرَّ نفسَك وتضرَّ النَّاسَ معك.

قال: أعوذُ بالله منَ الشَّيطان الرَّجيم، قلتُ: فإنَّ الشَّيطان أضلَّ مِن قبلِك أناسًا كثيرين بمثل هذا الكلام، فلا يعبَث بعقلِك، وكلَّما جاءك هذا الوحيُ استَعِذ بالله من الشَّيطان يذهب عنك وتسْلَم بإذن الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

□ **الثَّانية عشرة:** قوله: «وَالسَّاعَةُ حَقٌّ»؛ والسَّاعة: أي

الَّتي يَنفخ فيها ملكُ الصُّور في الصُّور وينتَهي هذا العالم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الروم]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة الروم]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

ويقال لها «ساعة»؛ لأنَّها تقع في لحظة واحدة، فينتهي كلُّ شيء، وتنقضي الحياةُ الدُّنيا بكلِّ تفاصيلها، وتبدأ الحياةُ الآخرة، وكلُّ ميِّتٍ مات فقَد قامت قيامَتُه، ولكنَّها قيامةٌ صُغرى وكُبرى؛ فالصُّغرى: هي ما يقوم على كلِّ إنسان في خاصَّتِه مِن خروج روحِه وفراقِ أهلِه وانقطاع سعيِه وحصولِه على عمله، إن كانَ خيرًا فخير، وإن كانَ شرًّا فشرٌّ، والقيامة الكُبرى: هي الَّتي تعمُّ النَّاس وتأخُذُهم أخذةً واحدةً.

والدَّليل على أنَّ كلَّ ميِّتٍ يموتُ فقَد قامت قيامتُه: ما

رواه مسلم[1] عن عائشةَ قالتْ: كان الأعرابُ إذا قدِموا على رسول الله ﷺ سألوه عن السَّاعة: متى السَّاعةُ؟ فنظرَ إلى أحدَث إنسانٍ منهُم فقال: «**إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ**»، وروى أحمد وغيره عن هانئٍ مولى عثمانَ قال: كان عثمانُ إذا وقف على قبرٍ بكى حتَّى يَبُلَّ لِحْيَتَهُ، فقيل له: تذكرُ الجنَّةَ والنَّارَ فلا تبكِي، وتبكي منْ هذا؟! فقال: «إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **القَبْرُ أَوَّلُ مَنَازِلِ الآخِرَةِ، فَإِنْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ**»[2].

□ **الثَّالثة عشرة:** قوله: «**اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ**»؛ أي انقدت، قال تعالى: ﴿**وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ**﴾ [الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿**فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾**﴾ [سورة الحج].

---

(١) في «صحيحه» برقم (٢٩٥٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤٥٤)، وابن ماجه (٤٢٦٧)، والتِّرمذي (٢٣٠٨)، وحسَّنه.

والإسلام: هو الاستِسلام لله بالتَّوحيد، والانقيادُ له بالطَّاعة، والخلوص من الشِّرك، فالإسلام استسلامٌ لله وطاعة وامتثالٌ لأمر الله ـ تبارك وتعالى ـ، فهو استسلامٌ لله لا لغَيره، فمَن لم يستَسلم له فقَد استكبر، ومَن استَسلم لله ولغَيره فقَد أشرك، وكلٌّ منَ الكبرِ والشِّرك ضدُّ الإسلام، وهو الدِّين الَّذي لا يقبلُ الله دينًا غيرَه، لا من الأوَّلين ولا من الآخرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران].

□ **الرَّابعة عشرة:** قوله: «وَبِكَ آمَنْتُ»؛ إلهًا وربًّا ومعبودًا، ولا معبود بحقٍّ سواك، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٦]، ومن دعواتِ أولي الألباب: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران]، وهذا

أعظم أركان الدِّين، وأصل أصول الإيمان، ومعناه الإيمان بوحدانيَّة الله تعالى وتفرُّده بأسمائه وصفاته، والإيمان بأنَّه الإله الحقُّ المبين، وأنَّ ما عبَد مِن دونه، فعبادتُه أبطل الباطل وأضلُّ الضَّلال، وهو يقومُ على أركان ثلاثة جُمعت في هذا الاستِفتاح وهي:

الإيمان بوحدانيَّة الله في ربوبيَّته؛ بأنَّه الواحد في ملكِه وأفعالِه لا شريك له؛ في قوله: «**أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**»، وقوله: «**أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ**».

والإيمان بوحدانيَّته في ألوهيَّته؛ بأنَّه تعالى الواحد في إلهيَّته وعبادتِه لا ندَّ له، وإخلاصُ الدين له وإفرادُه وحده بالعبادة؛ في قوله: «**اللَّهمَّ لَكَ الحَمْدُ**»، وقوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**».

والإيمان بوحدانيَّته في أسمائه وصفاته؛ بأنَّه الواحد في ذاته وأسمائه وصفاتِه لا نظير له؛ ففي هذا الاستفتاح ستَّة أسماءٍ حُسنى لله ـ عزَّ وجلَّ ـ متضمِّنةٌ لصفات الكمال،

ونُعُوت الجلال.

وقوله: «**أَنْتَ الحَقُّ**» يجمَعُ الأنواعَ الثَّلاثة كلَّها ـ كما تقدَّم ـ.

وفي قوله: «**لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ**» جمعٌ بين الإسلام والإيمان، كما جُمع بينَهُما في قوله سبحانَه: ﴿**قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦**﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ]، والقاعدةُ عند أهل العلم: «أنَّ الإسلام والإيمانَ إذا اجتمعَا افترقَا، وإذا افترقا اجتمعا»، والمعنى: أنَّ الإسلام والإيمان إذا اجتمعَا في الذِّكر أي ذُكرَا معًا في نصٍّ واحدٍ؛ افترقَا في المعنى، وإذا فترقَا في الذِّكر كلٌّ منهما ذُكر مفردًا؛ اجتمعَا في المعنى أي أخذ كلُّ واحدٍ منهما معنى الاسم الآخَر إضافةً إلى المعنى المختصِّ به.

وفي هذا قاعدةٌ يقرِّرُها أهلُ العلم وهيَ: «أنَّ منَ الأسماء ما يكونُ شاملًا لمسمَّياتٍ متعَدِّدةٍ عند إفرادِه

وإطلاقِه، فإذا قرنَ ذلك الاسمُ بغَيره صار دالًّا على بعضِ تلكَ المسمَّيات، والاسمُ المقرونُ به دالٌّ على باقيها»[1]، وهُنا ذكر الإسلام والإيمان معًا؛ فالإسلامُ هُو العَمل، والإيمان هو العَقيدة، يوضِّح ذلك حديث جبريل المشهور حيث أخبر عن الإسلام فقَال: «**أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ البَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**»، وهذا كلُّه عمل، ثمَّ أخبر عن الإيمان فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِالله، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»، وهذا كلُّه عقيدة، فقوله: «**اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ**» هذا العمل، وقوله: «**وَبِكَ آمَنْتُ**» هذه العقيدة، وفيه من الفائدة: أنَّ الإسلام عقيدةٌ وشريعةٌ، قولٌ وعملٌ، كما قال السَّلف: «الإيمانُ قولٌ وعملٌ».

---

(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٢٥).

□ **الخامسة عشرة**: قوله: «**وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ**»؛ فيه التَّوكُّل على الله وحده، وحقيقة التَّوكُّل هو: عملُ القَلب وعبوديَّته اعتمادًا على الله وثقةً به والتجاءً إليه وتفويضًا إليه ورضًا بما يقضيه له؛ لعلمِه بكفايتِه ـ سبحانه ـ وحسن اختيارِه لعبدِه إذا فوَّض إليه أمورَه، مع قيامِه بالأسباب المأمور بها واجتهادِه في تحصيلها، دونَ تعدٍّ إلى فعل سببٍ غير مأمور أو سلوك طريق غير مشروع.

والتَّوكُّل: مقامٌ عظيمٌ من مقامات الدِّين الجليلة، وفريضةٌ عظيمةٌ يجبُ إخلاصُها لله وحده، وهو مِن أجمع أنواع العبادة وأهمِّها لما ينشَأ عنه منَ الأعمال الصَّالحة والطَّاعات الكثيرة، فإنَّه إذا اعتَمد القلبُ على الله في جميع الأمور الدِّينيَّة والدُّنيويَّة دونَ مَن سواه صحَّ إخلاصُه وقويَت معاملتُه مع الله وزاد يقينُه وثقتُه بربِّه ـ تبارك وتعالى ـ، وهو مصاحبٌ للمُؤمن الصَّادق في أموره كلِّها

الدِّينيَّة والدُّنيويَّة؛ فهو مصاحبٌ له في صلاتِه وصيامِه وحجِّه وبرِّه وغير ذلك من أمور دينه، ومصاحبٌ له في جلبِه للرِّزق وطلبِه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

□ **السَّادسة عشرة:** قوله: «**وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ**»؛ والإنابة: هي الرُّجوع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالإقبال عليه وعلى طاعته كما قال تعالى: ﴿**وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ**﴾ [الزمر: ٥٤]، وقد ذكَر اللهُ الإنابةَ في مواضع كثيرة منَ القرآن، وأثنى على المُنيبين وأمر بالإنابة إليه.

وحقيقة الإنابة: انجذابُ القلب إلى الله في كلِّ حالة من أحواله، يُنيب إلى ربِّه عند النَّعماء بشُكره، وعند الضَّرَّاء بالتَّضرُّع إليه، وعند مطالب النُّفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهمَّاته، ويُنيب إلى ربِّه باللَّهج بذكره في كلِّ وقت.

وهي أيضًا: الرُّجوع إلى الله، بالتَّوبة مِن جميع المعاصي، والرُّجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضُها على كتاب

الله وسنَّة رسولِه ﷺ، فتكونُ الأعمالُ والأقوالُ موزونةً بميزان الشَّرع.

□ **السَّابعة عشرة:** قوله: «**وَبِكَ خَاصَمْتُ**»؛ أي أَنَّني مستعينٌ بك ـ يا الله ـ في محاجَّتي ومخاصَمتي لأعدائك، وردِّي عليهم، وبياني لفسَادِ عقائدِهم وضلالهم وباطِلِهم، ملتجئٌ إليك وحدَك، وهذا فيه تفويضُ العبد أمرَه إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ في ردِّه باطلَ المبطلين وضلالَ المضلِّين، كما أخبر الله عن نبيِّه شعيب عليه السلام أنَّه قال: ﴿**إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾**﴾ [سورة هود].

□ **الثَّامنة عشرة:** قوله: «**وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**»؛ هذا فيه أنَّ التَّحاكم إنَّما يكون إلى شرع الله قال تعالى: ﴿ **وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾**﴾ [سورة الشورى] وقال تعالى: ﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ**

﴿حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [سُورَةُ النِّسَاءِ]، والرَّدُّ لا يكون إلَّا إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النِّسَاءِ : ٥٩]، والرَّدُّ إلى الله: ردٌّ إلى كتابه، والرَّدُّ إلى الرَّسول ﷺ: ردٌّ إلى سنَّته ـ صلواتُ الله وسلامُه عليه ـ، ومَن ابتغى غير ذلكَ تناوَلَه قولُه تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سُورَةُ المَائِدَةِ].

بعد هذه الأصول العَظيمة الَّتي قدَّمها النَّبيُّ ﷺ في مُناجاته لربِّه ـ سبحانه وتعالى ـ متوسِّلًا إليه بها شرع في ذكر المطلوب وهو غفران الذُّنوب.

ونستَفيد من ذلك فائدةً عظيمةً جدًّا: أنَّ أعظم وسيلة إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ للفَوز عنده ونيل مرضاتِه هي العقيدة الصَّحيحة، فها هو نبيُّنا وقدوتُنا وأسوتُنا ﷺ في مناجاته لربِّه في جوف اللَّيل يتوسَّل إلى الله بهذه الأصول

العظيمة: «**اللَّهمَّ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**»، «**أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ**»، «**أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ**»، «**أَنْتَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ**»، «**اللَّهمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ**»، وهذه كلُّها عقائد، بل أمَّهات أصول الاعتقاد يذكرها مقرِّرًا إيمانه وتصديقه بها متوسِّلًا إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بذلك، فأعظم وسيلة يُتوسَّل إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها العقيدة الصَّحيحة.

ويُستَفاد من هذَا أيضًا: أنَّ فسادَ العقيدة انقطاعٌ في الوسيلة، فإذا فسَدَت عقيدةُ الإنسان انقطعت الوسيلةُ بينَه وبين الله، إذ لا وسيلةَ إلى الله بدون عقيدة صحيحة، والله! لا وسيلة إلى الله بدونِ عقيدة صحيحة، فالعقيدةَ الفاسدة تقطع الوسيلةَ بينَ الإنسانِ وبينَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ، ولا وسيلةَ تُدني منَ الله وتقرِّب منه إلَّا العقيدة الصَّحيحة المستَمدَّة مِن

كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ وسنَّة نبيِّنا الكريم ـ صلوات الله وسلامُه وبركاته عليه ـ، وهذه فائدةٌ ثمينةٌ جدًّا؛ نتنبَّه لها.

ويُستَفاد منه كذلكَ أنَّ الأذكار المحدَثَة الَّتي تَكلَّف إنشاءَها المتخرِّصُون وأحدَثَها المتكلِّفُون قطعٌ للوسيلة لما فيها مِن شغْلٍ للنَّاس عن الأذكار المشروعَة الَّتي اشتَملت على جماع الخير وتمامِه، مع العصمَة والسَّلامة منَ الخطأ، وإشغالهم بأذكارٍ مختَرَعة لا تسلمُ من الخطأ والانحراف.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأمَّا اتِّخاذُ وردٍ غير شرعيٍّ، واستنانُ ذكرٍ غيرِ شرعِيٍّ: فهذا ممَّا يُنهَى عنه، ومع هذا ففي الأدعيَّة الشَّرعيَّة، والأذكار الشَّرعيَّة غايةُ المطالِب الصَّحيحة، ونهايةُ المقاصِد العليَّة، ولا يَعدلُ عنها إلى غيرِها منَ الأذكار المحدَثَة المبتَدَعة إلَّا جاهلٌ أو مفرِّطٌ أو متعدٍّ»(١).

وقال أيضًا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومِن أشدِّ النَّاس عيبًا مَن يتَّخذُ حزبًا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢/ ٢١٥).

ليسَ بمأثور عن النَّبيِّ ﷺ وإن كانَ حزبًا لبعض المشايخ، ويدعُ الأحزابَ النَّبويَّة الَّتي كانَ يقولها سيِّدُ بني آدَم، وإمامُ الخلق، وحجَّةُ الله على عبادِه»[1].

□ **التَّاسعة عشرة:** قوله: «**فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ**»؛ أي: فاغفر لي يا الله جميعَ الذُّنوب فإنَّ رحمتَك واسعةٌ، وصفحَك كريمٌ، وأنت الغفورُ الرَّحيم، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ١٣٥].

ولو قَال: «فاغفِرْ لي ذُنوبي كلَّهَا» كانت الجملةُ أخصَر وأوجَز ومتناوِلةً لكلِّ هذا، لكنَّ مقامَ الاستِغفار مقامٌ عظيمٌ جدًّا يحتاجُ العبدُ أن يستَحضر فيه أنواعَ الذُّنوب الَّتي عملَها وأنَّها ذنوبٌ متنوِّعةٌ؛ ذنوبٌ قديمةٌ، وذنوبٌ حديثةٌ، وذنوبٌ

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/ ٥٢٥).

قليلةٌ، وذنوبٌ كثيرةٌ، وذنوبٌ خفيَّةٌ، وذنوبٌ معلَنةٌ، يستَحضر هذا كلَّه وأنَّه مذنِبٌ ومقصِّرٌ وواقعٌ فيه جميعه، فيطلبُ منَ الله غفران هذه الذُّنوب، والله ـ سبحانه وتَعالى ـ غفورٌ رحيمٌ، لا يتعاظمُه ذنبٌ أن يغفرَه ـ جلَّ وعلا ـ: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الزمر].

هذا؛ ولا يخفى شأنُ الاستغفار ومكانتُه العظيمة فهو «يُخرج العبدَ منَ الفِعل المكروه إلى الفِعل المحبوب، منَ العمل النَّاقص إلى العَمل التَّامِّ، ويرفعُ العبدَ منَ المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل؛ فإنَّ العابدَ لله والعارفَ بالله في كلِّ يوم ـ بل في كلِّ ساعة، بل في كلِّ لحظة ـ يزداد علمًا بالله، وبصيرةً في دينه وعبوديَّته، بحيثُ يجد ذلكَ في طعامه وشرابه ونومِه ويقظتِه وقولِه وفعلِه ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقَّها، فهو يحتاج

إلى الاستغفار آناءَ اللَّيل وأطرافَ النَّهار؛ بل هو مضطرٌّ إليه دائمًا في الأقوال والأحوال في الغَوائب والمشاهد لما فيه من المصالح وجلب الخيراتِ ودفع المضرَّاتِ وطلب الزِّيادة في القوَّة في الأعمالِ القلبيَّة والبدنيَّة اليقينيَّة الإيمانيَّة»[1].

□ **العشرون**: قوله: «**أَنْتَ المقَدِّمُ، وَأَنْتَ المؤَخِّرُ**»؛ وهذا توسُّلٌ إلى الله بهذَيْن الاسمَيْن العظيمَيْن لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وقد ورَدَا في هذا الحديث في سياق طلب الغُفران للذُّنوب جميعِها؛ المتقدِّم والمتأخِّر، والسِّرِّ والعلانيَّة، وفي هذَا أنَّ الذُّنوب توبقُ العبدَ وتؤخِّرُه، وصَفْحُ الله عن عبدِه وغفرانُه له يقدِّمه ويرفعُه، والأمر كلُّه لله وبيده، يخفض ويرفع، ويعزُّ ويذلُّ، ويعطي ويمنَع، مَنْ كتب الله له عزًّا ورفعةً وتقدُّمًا لم يستَطع أحدٌ حرمانَه من ذلك، ومَن كتَبَ الله له ذلًّا وخفضًا وتأخُّرًا لم يستَطع أحدٌ عونَه للخلاص من

(١) «مجموع الفتاوى» لابن تيميَّة (١١/ ٦٩٦).

ذلك، وفي الحديث: «مَا مِنْ قَلْبٍ إلَّا وَهُوَ بَيْنَ أصْبعَيْنِ مِنْ أَصَابعِ رَبِّ العَالمينَ إِنْ شَاءَ أنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يزِيغَهُ أَزَاغَهُ، وَكَانَ يَقُولُ: يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلى دِينِكَ، وَالميزَانُ بِيَدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ يَخْفضُهُ وَيَرْفَعُهُ» رواه أحمد[1].

وفي هذا بيانٌ أنَّ العبد ليسَ إليه شيءٌ من أمر سعادتِه أو شقاوتِه، أو خفضِه أو رفعِه، أو تقدُّمِه أو تأخُّرِه، إن اهتدى فبهداية الله إيَّاه، وإن ثبتَ على الإيمان فبتثبيته، وإن ضلَّ فبصرفِه عن الهدى، وأنَّ الَّذي يتولَّى قلوبَ العباد هو الله، يتصرَّف فيها بما شاء، لا يمتَنع عليه شيء منها، يقلِّبها كيف يشاء.

والعبد مع هذا محتاجٌ إلى بذلِ المساعي النَّافعة، وسُلوك المسالك الصَّالحة الَّتي يكونُ بها تقدُّمه ونيلُه رضا الله، والبُعد عن المسالك السَّيِّئة الَّتي يكونُ بها تأخُّرُه ووقوعُه في سَخط الله، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾

(١) برقم (١٤٦٣٠) من حديث النَّواس بن سمعان، وإسناده صحيح.

[سورة المدثر]، أي: يتقدَّم بفعل ما يقرِّبه مِن ربِّه ويُدنيه من رضاه ودار كرامتِه، أو يتأخَّر بفعل المعاصي واقترافِ الآثام الَّتي تُباعده عن رِضَى الله وتُدنيه من سَخطه ومن النَّار، ولا غنى للعَبد في فعل ما فيه تقدُّمه والبُعد عمَّا فيه تأخُّره عن الرَّبِّ المقدِّم والمؤخِّر ـ سبحانه ـ، فهو محتاجٌ إليه في كلِّ شؤونه، مفتقرٌ إليه في جميع حاجاتِه، لا يستَغني عن ربِّه ومولاه طرفةَ عين.

□ **الحادية والعشرون:** قوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»؛ وهذا ختمٌ لهذه المناجاة العظيمة بأعظم الكلمات على الإطلاق؛ كلمة التَّوحيد«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، التي لأجلها خُلقت الخليقةُ، وأُرسلت الرسلُ، وأُنزلت الكتبُ، وبها افترق النَّاس إلى مؤمنين وكفَّار، وسُعداء أهل الجنَّة وأشقياء أهل النَّار، فهي العُروة الوثقَى، وهي كلمة التَّقوى، وهي أعظم أركانِ الدِّين وأهمُّ شُعَب الإيمان، وهي سبيلُ الفَوز بالجنَّة والنَّجاة منَ النَّار، وهي كلمة

الشَّهادة، ومفتاحُ دار السَّعادة، وأصل الدِّين وأساسُه ورأسُ أمره، وفضائل هذه الكلمَة وموقعُها منَ الدِّين فوقَ ما يصفُه الواصفون ويعرفُه العارفون.

وهذا توسُّلٌ إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ بألوهيَّته وأنَّه لا إلهَ إلَّا هو؛ أي: لا معبود بحقٍّ سواه، فـ«**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**» نفيٌ وإثباتٌ؛ نفيٌ للعبوديَّة عن كلِّ مَنْ سوى الله، وإثباتٌ للعبوديَّة بكلِّ معانيها لله ـ سبحانه وتعالى ـ وحده؛ ولا تكونُ مقبولة عند الله بمُجرَّد التَّلفُّظ بها باللِّسان فقَط، دونَ قيامٍ منَ العبدِ بحقيقة مدلولها، وتطبيق لأساس مقصُودِها مِن نفي الشِّرك وإثباتِ الوحدانيَّة لله، مع الاعتقادِ الجازم لما تضمَّنَتْه من ذلك والعَمل به، فبذلكَ يكونُ العبد مسلمًا، وبذلكَ يكون من أهل لا إلهَ إلَّا الله.

فصاحبُ «لا إلهَ إلَّا الله» حقًّا لا يدعو إلَّا الله، ولا يستغيث إلَّا بالله، ولا يتوكَّل إلَّا على الله، ولا ينذر إلَّا لله،

ولا يذبح إلَّا لله، ولا يصرِفُ شيئًا من العبادة إلَّا لله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سُورَةُ الأَنْعَامِ].

والحاصل أنَّ «لا إلهَ إلَّا الله» لا تنفَع إلَّا مَن عرفَ مدلولها نفيًا وإثباتًا، واعتقَد ذلك وعملَ به، أمَّا مَن قالها وعملَ بها ظاهرًا مِن غيرِ اعتقادٍ فهو المنافق، وأمَّا مَن قالها وعمل بضدِّها وخلافِها من الشِّرك فهو الكَافر، وكذلك مَن قالها وارتدَّ عن الإسلام بإنكار شيءٍ مِن لوازِمها وحقوقِها فإنَّها لا تنفَعه ولو قالها ألفَ مرَّةٍ، وكذلكَ مَن قالها وهو يصرفُ أنواعًا من العبادة لغَيْر الله كالدُّعاء، والذَّبح، والنَّذر، والاستغاثة، والتَّوكُّل، والإنابة، والرَّجاء، والخوف والمحبَّة، ونحو ذلكَ، فمَن صرفَ ممَّا لا يصلحُ إلَّا لله من العباداتِ لغير الله فهو مشرك بالله العَظيم ولو نطقَ بلا إلهَ إلَّا الله؛ إذ لم يعمَل بما تقتَضيه من التَّوحيد والإخلاص الَّذي

هُو معنَى ومدلول هذه الكلمة العظيمة[1].

وفي هذا الحديث جمعٌ بينَ التَّوحيد والاستغفار عمَلًا بقولِ الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩]، وكثيرًا ما يجمع بينَهما في النُّصوص.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فشهادةُ أن لا إلهَ إلَّا الله بصدقٍ ويقينٍ تُذهبُ الشِّركَ كلَّه، دقَّه وجلَّه، خطأَه وعمْدَه، أوَّلَه وآخِرَه، سرَّهُ وعلانيَّتَه، وتأتي على جميع صفاتِه وخفاياه ودقائقِه، والاستغفار يمحُو ما بقي مِن عثرَاتِه ويمحو الذَّنبَ الَّذي هُو مِن شُعَب الشِّرك، فإنَّ الذُّنوب كلَّها من شُعَب الشِّرك؛ فالتَّوحيد يُذهِب أصلَ الشِّرك، والاستغفَارُ يمحو فروعَه، فأبلَغُ الثَّناء قولُ: لا إلهَ إلَّا الله، وأبلغُ الدُّعاء قولُ: أستغفِر الله»[2].

---

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٧٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٧).

□ **الثَّانية والعشرون**: قوله: «**وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»؛ وقد وردت في بعض روايات الحديث في «الصَّحيح»، وهي كلمة إسلامٍ واستِسلامٍ، وتفويضٍ وتبرُّؤٍ من الحَول والقوَّة إلَّا بالله، وأنَّ العبدَ لا يملكُ من أمرِه شيئًا، وليس له حيلةٌ في دفعِ شرٍّ، ولا قوَّةٌ في جلبِ خيرٍ إلَّا بإرادة الله تعالى، فلا تحوُّل للعبد مِن معصية إلى طاعة، ولا مِن مرض إلى صحَّة، ولا مِن وهنٍ إلى قوَّة، ولا مِن نقصان إلى كمالٍ وزيادةٍ إلَّا بالله، ولا قوَّة له على القيام بشأنٍ مِن شؤونِه، أو تحقيق هدفٍ من أهدافِه أو غاية مِن غاياته إلَّا بالله العظيم.

وتتضمَّن هذه الكلمَةُ العظيمةُ إثباتَ القَدر، وهو أصلٌ من أصُول الدِّين العَظيمة، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقَد أجمعَ المسلمون على هذه الكلمَة وتلقِّيها بالقَبول، وهي شافيةٌ كافيةٌ في إثبات القَدَر، وإبطالِ قولِ القَدريَّة»[1]، ولهذا ترجَم

(١) «شفاء العليل» (ص ١١٢).

لها الإمامُ البُخاري في كتاب القَدر من «صحيحه» بقولِه: «باب: لا حولَ ولا قوَّة إلَّا بالله»، ودلالة هذه الكلمَة على الإيمان بالقَدر ظاهرة؛ إذ فيها تسليم العَبد واستِسلامه وتبرُّؤه منَ الحول والقوَّةِ، وأنَّ الأمورَ إنَّما تقع بقضَاء الله وقدَرِه، وأنَّ ما شاءَ كانَ، وما لم يشأ لم يكن، لا تتحرَّكُ ذرَّةٌ إلَّا بإذنِه، ولا يجري حادثٌ إلَّا بمشيئتِه، ولا يعزبُ عنه مثقالُ ذرَّةٍ في السَّموات ولا في الأرض ولا أصغَر من ذلك ولا أكبَر إلَّا أحصَاها علمُه، وأحاطَت بها قُدرتُه، ونفذَت بها مشيئتُه، واقتضَتْها حكمتُه.

وفي قوله: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، ولَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله**» جمع بين التَّوحيد والاستعانة، فإنَّ «لا إله إلَّا الله» كلمة توحيد، تحقيقها ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله كلمة استعانة، تحقيقها ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

وقد جمع الله ـ سبحانه ـ بين هذين الأصلين في مواضع

كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ۝٣٠﴾ [سورة الرعد]، وقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [سورة الطلاق]، فالعبادةُ لله والاستعانةُ به، فما لم يكُن بالله لا يكون؛ فإنَّه لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، وما لم يكُن لله فلا ينفَع ولا يدوم، والله تعالى أعلم.

ألا ما أهنأَ وألذَّ وأطيَبَ ليلٍ يقوم المرءُ المسلم في جوفه ليصلِّيَ لربِّه ومولاه ما كتَبَ الله له من صلاة، مستفتحًا بهذا الاستفتاح العظيم، مستشعرًا معانيه العظيمَة ودلالاتِه الجليلة، مجدِّدًا إيمانَه وتوحيدَه، مقوِّيًا صلتَه بربِّه ومولَاه، راجيًا نيلَ ما يترتَّبُ عليه من الأحوال الزَّكيَّة، والمقامات العليَّة، والنَّتائج العظيمة، والآثار المباركة، والعَوائد الحميدة،

وبالله وحدَه التَّوفيق لا شريكَ له.

والحمد لله ربِّ العالمين، وأسألُ الله أن يجعلَ ذلك خالصًا لوجهه وموافقًا لمحبَّته ونافعًا لعبادِه، وأن يوفِّقَني وسائر إخوانِنا المسلمين لما يحبُّه ويرضَاه مِن القَول والعَمل والنِّيَّة، وأن يهدينَا أجمعين صراطَه المستَقيم، صراطَ الَّذين أنعمَ اللهُ عليهم من النَّبيِّين والصِّدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئكَ رفيقًا، إنَّه سميعُ الدُّعاء وهو أهل الرَّجاء وهو حسبُنا ونِعم الوكيل، وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين[1].

---

(١) أصل هذه الرِّسالة محاضرةٌ ألقيتُها في المعهد الإسلامي في دولة غامبيا في (٢٥/٦/١٤٣٤هـ)، وقد فُرِّغت من الشَّريط وأَجْرَيْتُ عليها تعديلاتٍ عديدةٍ، وأضفتُ إليها نقولاتٍ وفوائد، والله وحدَه الموفِّق لا شريك له.